وقال تعالى في ما ورد في خطاب التوراة لموسى عليه السلام: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾[١]، وأيضاً في خطابه لبني إسرائيل: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَكُم بِقُوَّةٍ﴾[٢]، وفي خطابه ليحيى عليه السلام: ﴿يَيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾[٣]، فيعود المعنى إلى أنكم فاقدوا العماد الذي يجب عليكم أن تعتمدوا عليه في إقامة دين الله الذي أنزله إليكم في كتبه، وهو التقوى والإنابة إلى الله بالرجوع إليه مرّة بعد أخرى والإتصال به والإيواء إلى ركنه بل مستكبرون عن طاعته ومتعدون على حدوده»[٤].

ب - وقد يستعين الطباطبائي بالسياق لتعيين معاني بعض الألفاظ الواردة في الآيات، فنجده يقول في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٥] إن (تفصيل الكتاب) عطف على (تصديق)، والمراد بالكتاب بدلالة السياق جنس الكتاب السماوي النازل من عند الله سبحانه على أنبيائه، والتفصيل إيجاد الفصل بين أجزائها المترابطة بعضها ببعض المنطوية في جانب منها على الإيضاح والشرح.

وفي دلالة على أن الدين الإلهي المنزل على أنبيائه عليهم السلام واحد لا اختلاف فيه إلاّ بالإجمال والتفصيل، والقرآن يفصّل ما أجمله غيره كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[٦]، وأن القرآن الكريم

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٣.
(٣) سورة مريم، الآية: ١٢.
(٤) الميزان في تفسير القرآن، م.م، ج٧، ص٦٥.
(٥) سورة يونس، الآية: ٣٧.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

مُفصّل لما أجملته الكتب السماوية السابقة مهيمن عليها جميعاً كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[١]، وقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢]، أي لا ريب فيه هو من ربّ العالمين، والجملة الثانية كتعليل للأولى»[٣].

أما من أمثلة الإستعانة بالروايات الصحيحة كمسألة نشر الحرمة، فيقول الطباطبائي: «إنه صح عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الله حرّم من الرضاعة ما حرّم من النسب)، ولازمه أن تنشر الحرمة بالرضاع فيما يحاذي محرمات النسب من الأصناف السبعة المذكورة في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾[٤]». في حين أن الآية لم تتعرض لجميع هذه الأصناف من الرضاع[٥].

وبناءً على كل ما تقدّم، وإذا ما تصفحنا كامل أجزاء الميزان، لوجدنا أن العلامة الطباطبائي يسير وفق هذا المنهج أي تفسير القرآن بالقرآن أو ما يعرف بالتفسير بالمأثور، بيْدَ أن هنالك منهجاً آخراً يتجلى معنا بوضوح، ويتبلور بشكل فصل منهجي بين العلوم، نجده أيضاً بين طيات هذا التفسير الضخم والغني بالمعرفة.

فتارة نجده محدّثاً وروائياً من الطراز الأول، وذلك بعد الإنتهاء من

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٢) سورة السجدة: الآية: ٢.
(٣) الميزان في تفسير القرآن، م.م، ج١٠، ص٦١.
(٤) سورة النساء: الآية: ٢٣.
(٥) الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج٤، ص٢٦٤ وما بعدها.

شرح بعض الآيات التي تعرضت لها بعض الروايات، ويضع لها عنواناً مستقلاً بين قوسين حتى لا يشتبه القارئ أنها من التفسير، وخاصة أنه يتعرّض تحت هذا العنوان إلى الأقوال المختلفة حول بعض المرويات والطرق والأسانيد، ويذيّلها برأيه الشخصي كمحدّث أو متخصص بعلمي الدراية والحديث[١].

وتارةٍ نجده فيلسوفاً، ومتكلّماً، وإجتماعياً، بحسب الموضوعات التي تتعرض لها الآيات القرآنية، ويمكن الإستفادة من مناسباتها، وكل ذلك يجري وفق منهجٍ خاص بكل موضوع، فهو يضع لكل موضوع يعالجه عنواناً مستقلاً بعد الإنتهاء من تفسيره وشرح الآيات، وهو بذلك يجسّد ما يدعو إليه دائماً من أهمية الفصل المنهجي بين العلوم.

وفي ختام هذا البحث نقول: إن منهج العلامة الطباطبائي في التفسير كما تجلّى ذلك في كتابه (الميزان)، والذي يقع في خانة التفسير بالمأثور، جاء منضبطاً بالإطار الذي أراده المفسِّر، وهذا يدلّ على مدى حرص المفسِّر وعنايته الدقيقة والنزاهة الإستثنائية بالعمل وفق منهجية محدّدة وواضحة، كما أن هذا الأثر العلمي النفيس الذي خلّفه العلامة الطباطبائي لا يعدّ مصدراً من مصادر التفسير فحسب، بل هو عبارةٍ عن مرجعٍ من أهم المراجع العلمية الإسلامية، وذلك لما تضمّنه من وفرة معرفية شملت مساحة واسعة من ميادين العلوم المختلفة، كاللغة، والتفسير، والروايات، وعلم الحديث، والفلسفة، والعرفان، والإجتماع، والإقتصاد، والكلام، والعقائد، والأدب، والسياسة، والقصص القرآني .... وغيرها من علوم.

(١) انظر مثلاً الميزان، ج٦، ص٩١.

وبهذا المعنى، نستطيع أن نقول: أنّ هذا المؤلف الشامل والنفيس هو فريد من نوعه، واستثنائي بكل ما للكلمة من معنى وخاصة أنه جاء نتيجة جهود عظيمة نهض بها فرد واحد.

٢ – في الفلسفة والكلام:

إن تاريخ الفكر البشري بدأ مع بداية الإنسان وهو في تقدّم حتى نهاية التاريخ، فأينما حلّ الإنسان فإنه كان يحمل معه همّ التفكير على أنه ميزة لا تنفصل عنه، وكلما وطئ الإنسان بقعة فإنه ترك فيها آثاراً لعقله وتفكيره.

وبما أن الفلسفة هي نمط من أنماط أعمال الفكر والنظر، «فبدأت التساؤلات الفلسفية بصورة عامة مع نشوء المجتمعات الإنسانية، وبدأت نظرياته تستند إلى الحواس والظواهر، ثم أصبحت تحكّم العقل في كل المظاهر، وفي هذا المجال يرى (كارل ياسيرز) أن التأملات الفلسفية تنبع من صميم الإنسان، لذا فهي شائعة بين الناس جميعاً، كباراً وصغاراً، بدائيين ومتحضرين، حتى الأفراد الذين يعتبرهم المجتمع مجانين، لهم نصيبهم من التساؤلات الفلسفية»[١].

ويعتقد مؤرخو الفلسفة، «أنّ أقدم الآثار الفلسفية الصرفة أو ذات الجانب الفلسفي الغالب تتعلق بحكماء اليونان الذين عاشوا قبل الميلاد بستة قرون»[٢].

---

(١) فضل الله، د.هادي، مدخل إلى الفلسفة، دار المواسم للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ت٢٠٠٢م، ص١١.

(٢) مصباح اليزدي، محمد تقي، المنهج الجديد في تعليم الفلسفة، دار التعارف، بيروت، ط١، ت١٩٩٨، ج١، ص١٥.

ويرى الدكتور ماجد فخري، أن «الفلسفة الإسلامية حصيلة عمل فكري مركب، اشترك فيه السريان والعرب والفرس والأتراك والبربر وسواهم اشتراكاً فاعلاً. لكن دور العنصر العربي كان راجحاً إلى حد جاز معه اعتبار تسميتها بالفلسفة العربية أمراً مناسباً، فالأداة التي اختارها المؤلفون الذين نشأوا ما بين القرن الثامن والسابع عشر في بلدان متباعدة، مثل خراسان والأندلس، للتعبير عن أفكارهم، كانت اللغة العربية»(١).

بيْد أننا هنا لسنا بصدد استعراض تاريخ نشوء الفلسفة بشكلٍ عام، إنما من باب التقديم لعرض المنهج الفلسفي بشكل موجز؛ وصولاً إلى استعراض منهج العلامة الطباطبائي في الفلسفة، والذي يعنينا بشكلٍ خاص.

يرى الدكتور هادي فضل الله «إن الفلسفة ليست في نهاية الأمر إلاّ منهجاً خاصاً من مناهج التفكير، يلتزم فيه الإنسان النظرة الكلية إلى الوجود، وعلاقة الإنسان به، ويبتعد الفيلسوف عن النظرة الدارجة، ولا يقيّد نفسه باستخدام منهجي الإستدلال والإستقراء والتجريب، فإن الفلسفة أكثر اعتماداً على الإستدلال العقلي منها على الإستقراء والتجريب، بينما الرياضيّات استدلالية محضة، والعلوم الطبيعية تجمع بين قليل من الإستدلال وكثير من الإستقراء والملاحظة والتجريب، والمنهج الذي تعتمده الفلسفة وتلتزمه في أبحاثها كلها هو المنهج

(١) فخري، ماجد، تاريخ الفلسفة الإسلامية، دار المشرق، بيروت، ط٢، ت٢٠٠٠م، ص١٣.

العقلي؛ وكما أنه لا يجوز لأي فيلسوف أن يقرّر أمراً دون أن يؤيده ببراهين عقلية منطقية تسلّم بها كل العقول»[١].

والعلامة الطباطبائي لم يحد عن هذا الأمر إطلاقاً، فمنهجه العقلي، وأدلته النظرية، وبراهينه المنطقية، تجلّت بشكل واضح في كل المسائل الفلسفية التي اشتغل عليها، ومنها ما استعرضناه في الفصل الثاني من هذه الدراسة، وسيتّضح معنا ما تبقى منها في الفصول القادمة إن شاء الله.

فهو «لم يكن ليخرج عن دائرة البرهان في الأبحاث الفلسفية، وكان يفصل جيداً بين المغالطة والجدال، والخطابة والشعر، وبين القياسات البرهانية، ولا يخلط أبداً بين المسائل الفلسفية والمسائل الشهودية والعرفانية والذوقية»[٢].

كما أنه «اعتمد في بحثه الفلسفي على الأسلوب البرهاني في عملية الإستدلال، واجتنب ما لجأ إليه بعض الفلاسفة والباحثين في الفلسفة الإسلامية من الإستعانة بالشعر والنصوص الصوفية والعرفانية والعبارات الذوقية»[٣].

هذا إلى جانب عقلانية الطباطبائي السيناوية - نسبة لابن سينا - «ومع أن الطباطبائي صدرائي المبنى إلا أنه سينوي المشرب، فهو لا يتقيّد بأقوال صدر الدين الشيرازي حرفياً، وإنما يقبلها إن انتهى إليها

(١) مدخل إلى الفلسفة، م.م، ص٣٩.
(٢) الشمس الساطعة، م.م، ص٤٠.
(٣) الرفاعي، عبد الجبار، مبادئ الفلسفة الإسلامية، دار الهادي، بيروت، ط١، ت٢٠٠١، ج١، ص١١٩.

البرهان، فيما يرفضها ويصوغ رأيا آخر إن لم يسعفه البرهان، فهو في قبول الآراء ورفضها لا يعتمد الذوق وإنما يستند إلى البرهان كما هو أسلوب المشائين»[١].

وهذا ما أكده تلميذه الطهراني حيث قال: «كان أستاذنا يجلُّ إبن سينا ويعتبره أقوى من صدر المتألهين في فن البرهان والإستدلال الفلسفي»[٢].

ولنأخذ مثالاً على ذلك، وهو ما جاء في معرض حديثه عن موضوع الحكمة والبراهين المستعملة فيها فيقول: «أن كون موضوعها أعم الأشياء يوجب أن لا يكون معلولاً لشيء خارج منه، إذ لا خارج هناك، فلا علّة له، فالبراهين المستعملة فيها ليست ببراهين لمية. وأمّا برهان الإنّ فقد تحقق في كتاب (البرهان من المنطق) أن السلوك من المعلول إلى العلة لا يفيد يقيناً، فلا يبقى للبحث الفلسفي إلا برهان الإنّ الذي يعتمد فيه على الملازمات العامة، فيسلك فيه من أحد المتلازمين العامين إلى الآخر»[٣].

وبعبارةٍ أوضح: «إن البراهين المستعملة في الحكمة ليست براهين لمية، وهي البراهين التي يكون السلوك فيها من العلّة إلى المعلول، لأنه لا غير للوجود سوى العدم، فلا علّة للوجود خارج الوجود، وإنما البراهين فيها براهين إنّية تعتمد على الملازمات العامة التي يُسلك فيها من أحد المتلازمين العامين إلى الآخر، بمعنى أنه لا يمكن الإستناد إلى البرهان اللمي في الفلسفة الإلهية، لأن موضوع الفلسفة هو الوجود

(١) مبادئ الفلسفة الإسلامية، م.ن، ص١٣٢.
(٢) الشمس الساطعة، م.س، ص٤١.
(٣) نهاية الحكمة، ج١، م.م، ص١٢.

المطلق الشامل لكل شيء، وليس هناك علّة للوجود غير الوجود؛ بينما يشترط في البرهان اللّمّي أن يكون الحدّ الأوسط علّة لثبوت الحدّ الأكبر للحدّ الأصغر، والحدّ الأصغر في الفلسفة هو الموجود المطلق، والحدّ الأكبر لا بدّ أن يرجع إلى الوجود، لأن المحمولات في الفلسفة لا بدّ أن تكون من سنخ الوجود، من قبيل: «العلية والمعلولية، والوحدة والكثرة، والقوة والفعل».

وعلى هذا، يكون «الحدّ الأصغر الذي هو موضوع الفلسفة الوجود المطلق الشامل لجميع مراتب الوجود، والمحمولات في الفلسفة تعود إلى الوجود ولا علة للوجود خارج الوجود، فلا مجال للبرهان اللمي في الفلسفة»[١].

أما في الإعتباريات، «فقد أقام العلامة الطباطبائي برهاناً على أن الفاعل الإرادي لا تنطلق إرادته إلاّ من أمرٍ اعتباري، أي أن الإنسان لا يفعل الفعل إلاَّ بعد إذعان بأمر اعتباري دائماً، واستدل على هذا المدعى، بأنه لو كان الشيء موجوداً في الخارج لما أوجب حركة الإنسان، لأن الموجود في الخارج لا يسعى الإنسان لتحصيله، لأنه من باب تحصيل الحاصل، وإنّما يسعى الإنسان دائماً لتحصيل ما ليس بحاصل، فإذا كان كذلك فلا بدّ أن ما يسعى لتحصيله الغير موجود، أي لا بدّ من الإذعان بقضية اعتبارية يسعى الفاعل الإرادي لإيجاد الفعل لأجلها.

فبيّن أن الحاجة إلى الإعتبار ضرورية وأن أفعال الإنسان متولّدة من

(١) للتوسع حول هذا الأمر، انظر: نهاية الحكمة، م.ن، ص١٢ أو مبادئ الفلسفة الإسلامية، م.م، ص١٣٠.

إرادته المنبثقة من القضايا الإعتبارية، حيث أن قضايا (الحسن والقبح) عملية تندرج في عموم القاعدة المذكورة، فيدل ذلك على اعتباريتهما»[١].

أما في المسائل الكلامية أو ما يسمى (علم الكلام) والذي يعرّف: «بأنه العلم الذي يُعنى ببيان الأصول الإسلامية والدفاع عن عقائد الإسلام الحقة في مقابل آراء أهل البدع والشبهات، والذي يستخدم ويتوسّل أسلوب المحاججة الكلامية، ويعتمد الأدلة العقلية والنقلية، كما أن المنهج المتبع في ذلك هو المنهج الجدلي على ما تفيده كلمة محاججة»[٢].

فإنه وإنطلاقاً من هذا التعريف لعلم الكلام ومنهجه الجدلي، نرى أن العلامة الطباطبائي لم يخرج عن دائرة المنهج الذي، - وكما مرّ معنا - يتوسّل الأدلة العقلية والنقلية في سبيل إثبات الرأي وإفحام الخصم.

فلو استعرضنا مثالاً على ذلك في مسألة التوحيد لوجدنا أن الطباطبائي يسير وفق هذا المنهج المذكور بشكل دقيق وواضح؛ وذلك بعد الإنتهاء من تفسيره للآية الثالثة بعد السبعين من سورة المائدة والتي جاء فيها: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[٣]، نجده قد أفرد عنواناً خاصاً وضعه بين قوسين يقول فيه: (كلام في معنى التوحيد في القرآن) تناول فيه هذه المسألة الكلامية والتي تُعتبر من أهم المسائل الكلامية، أو لنقل هي أمّ المسائل الكلامية على الإطلاق.

---

(١) سند، محمد، العقل العملي، دار الهادي، بيروت، ط١، ت٢٠٠٢م، ص٢٧٩.
(٢) بدوي، إبراهيم، علم الكلام الجديد، دار العلم، بيروت، ط١، ت٢٠٠٢، ص١٧.
(٣)

وقد أفرد لهذه المسألة مساحة واسعة جداً من النقاش العلمي وأيّدها بالأدلة العقلية والنقلية والتاريخية، حيث بلغت ما يقرب من عشرين صفحة لا مجال لاستعراضها كلّها، إنما سنقتطف منها ما يؤيد غرض بحثنا.

يمهّد العلاّمة الطباطبائي لبحثه بالقول: «لا يرتاب الباحث المتعمّق في المعارف الكلية أن مسألة التوحيد من أبعدها غوراً، وأصعبها تصوراً وإدراكاً، وأعضلها حلاً لارتفاع كعبها عن المسائل العامية التي تتناولها الأفهام، والقضايا المتداولة التي تألفها النفوس، وتعرفها القلوب.

وما هذا شأنه تختلف العقول في إدراكه والتصديق به للتنوع الفكري الذي فطر عليه الإنسان.. فهذا كلّه ممّا لا شكّ فيه، وقد قرّر القرآن هذا الإختلاف في موارد من آياته الكريمة كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾(٣)... فقد بلغ هذا الإختلاف في الفهم عند بعض الناس أن جعلوا الأوثان المتخذة، والأصنام المصنوعة من الخشب والحجارة حتى من الطينة المعمولة من أبوال الغنم شركاء لله، وقرناء له، يُعبد كما تُعبد هؤلاء، ويُسأل كما تُسأل هؤلاء، ويخضع له كما يخضع لها...

وهذه النظرة عند الإنسان تنطوي على ما يراه من أن للوجود المتعالي قدره مثل ما يراه لآلهته التي خلقها بيده، أو خلقها إنسان مثله

(١) سورة الزمر، الآية: ٩.
(٢) سورة النجم، الآيتان: ٢٩، ٣٠.
(٣) سورة النساء، الآية: ٧٨.

بيده، ولذلك كانوا يثبتون له تعالى من صفة الوحدة مثل ما يصفون به كل واحد من أصنامهم، وهي الوحدة العددية التي تتألف منها الأعداد، قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾[1].

. . . . والقرآن الكريم ينفي في تعليمه الوحدة العددية عن الإله جلّ ذكره، فإن هذه الوحدة لا تتم إلاَّ بتمييز هذا الواحد من ذلك الواحد بالمحدودية التي تقهره، والمقدرية التي تغلبه، مثال ذلك ماء الحوض إذا فرّقناه في آنية كثيرة كان ماء كل إناء ماء واحداً غير الماء الواحد الذي في الإناء الآخر، وإنما صار ماءً واحداً يتميز عما في الآخر لكون ما في الآخر مسلوباً عنه غير مجتمع معه، وكذلك هذا الإنسان إنما صار إنساناً واحداً لأنه مسلوب عنه ما للإنسان الآخر، ولولا ذلك لم يأتِ للإنسانية الصادقة على هذا وذاك أن تكون واحدة بالعدد ولا كثيرة بالعدد.

فمحدودية الوجود هي التي تقهر الواحد العددي على أن يكون واحداً، ثم بانسلاب هذه الوحدة من بعض الجهات تتألف كثرة عددية كما عند عروض صفة الإجتماع بوجه.

وبعبارةٍ أخرى، افرض أمراً متناهياً وآخر غير متناهٍ، تجد غير المتناهي محيطاً بالمتناهي، بحيث لا يدفعه المتناهي عن كماله المفروض أي دفع فرضته، بل غير المتناهي مسيطر عليه بحيث لا يفقده، المتناهي في شيء من أركان كماله، وغير المتناهي هو القائم على نفسه، الشهيد عليه، المحيط به، ثمّ انظر في ذلك إلى قوله تعالى:

(١) سورة ص، الآيتان: ٤، ٥.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾[1]، وهذا المعنى هو الذي ينفي عنه تعالى الوحدة العددية، إذ لو كان واحداً عددياً أي موجوداً محدوداً منعزل الذات عن الإحاطة بغيره من الموجودات صحّ للعقل أن يفرض مثله الثاني له، سواءً كان جائز التحقق في الخارج أو غير جائز التحقق.

وصحّ عند العقل أن يتّصف بالكِثرة بالنظر إلى نفسه، وإن فرض امتناعه في الواقع. وهو ليس كذلك..

.. ففي التوحيد والخصال بإسناد عن المقدام بن شريح بن هاني عن أبيه قال: إن أعرابياً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، أتقول: إن الله واحد؟ قال: فحمل الناس عليه، وقالوا: يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسّم القلب؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: دعوه فإن الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم!... ثم قال: يا أعرابي إن القول في أن الله واحد على أربعة أقسام: فوجهان منها لا يجوزان على الله عزّ وجلّ، ووجهان يثبتان فيه، فأما اللذان لا يجوزان عليه، فقول القائل: واحد يقصد به باب الأعداد، فهذا ما لا يجوز، لأنّ مالا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، أما ترى أنه كفر من قال: إنه ثالث ثلاثة؟ وقول القائل: هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس فهذا ما لا يجوز لأنّه تشبيه، وجلّ ربنا وتعالى عن ذلك؛ وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء شبه، كذلك ربنا، وقول القائل:

(١) سورة فصلت، الآيتان: ٥٣، ٥٤.

إنه عزّ وجل أحديّ المعنى يعني به أنه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم، كذلك ربنا عزّ وجلّ»[١]. .

ما تقدم عرضه، يؤكد مدى التزام الطباطبائي بالمنهج الجدلي الذي يتوسّل الأدلة العقلية والنقلية لإثبات المدعى وخاصة في المسائل الكلامية.

٣ - في الذوق والأخلاق

الذوق لغةً: «مصدر ذاق الشيء يذوقه ذوقاً وذواقاً ومذاقاً، فالذّواق والمذاق يكونان مصدرين ويكونان طعماً، كما تقول ذواقه ومذاقه طيب»[٢].

أما في الإصطلاح: فهونتيجة الطريقة المعتمدة على تصفية الباطن والقلب للوصول إلى الحقيقة الربانية عن طريق الحدس والكشف العرفاني.

وبعبارةٍ أخرى، «هي تلك اللذة التي يتذوّقها السالك في سفره الروحاني، وما يعيشه في مجاهدات ورياضاتٍ قلبية، وما يسلكه من مدارج على مستوى القامات والأحوال، وما يستشعره من الصفاء والإنتشاء الرباني، والإمتزاج الوجداني، والإتحاد بين الذاتين: العاشقة والمعشوقة، داخل بوتقة عرفانية واحدة، وهي في الأصل مصطلح صوفي[٣] تعكس مضمون التجربة الوجدانية التي يعيشها السالك في

(١) الميزان في تفسير القرآن، م.م، ص٨٦ - ١٠٤.
(٢) لسان العرب، مادة ذوق، م.م، ص١٤٠٣.
(٣) ذلك (لأن الصوفي هو من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله عن =

رحلته الروحانية من أجل تحقيق الوصال أو اللقاء الرباني عبر محطات ثلاث، وهي: التحلية والتخلية والوصال»[١].

والتحلية بمعنى التحلّي بمكارم الأخلاق، والتخلية بمعنى التخلي عن العلائق الدنيوية التي تشغل قلب المرء، والوصال بمعنى اللقاء أو الوصول إلى ساحة الكشف الشهودي المعنوي الصوري الغنية بالمعارف.

ويقصد بالصوري ما يحصل في عالم المثال، لا ما يستفاد عن طريق الحواس الخمس، وذلك إما عن طريق المشاهدة، وإما عن طريق السماع، أو يكون الكشف على سبيل التنسم بالنفحات الإلهية»[٢].

وهذه الكشوفات أو النغمات أو الإشراقات تنير قلب العارف، «بالعلم بالحق سبحانه وتعالى وبأسمائه وصفاته ومظاهره، كما العلم بالمبدأ والمعاد وحقائق العالم أي كل مراتب الوجود»[٣].

فالعارف لا يرى في الوجود إلاّ وجود الله حيث؛ «إن توحيد العارف يختلف عن توحيد الفيلسوف والمتكلّم، لأنّ العارف يعتقد أن الوصول إلى توحيده تعالى يعني الوصول إلى حال من الفناء التي لا يرى فيه إلاّ الله سبحانه، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[٤]، بمعنى أنّ كل

= البشر، واستوى عنده الذهب والمدر)، راجع: الزين، سميح عاطف، الصوفية في نظر الإسلام، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط. ٤، ت١٩٩٣، ص٢٥.

(١) حمداوي، جميل، الصوفية تجربة ومصطلح، منتدى المودة العالمي، موقع almuada, Çumer.com.

(٢) حمية، خنجر، العرفان الشيعي، دار الهادي، بيروت، ط١، ت٢٠٠٤م، ص٣٣٣.

(٣) شقير، محمد، فلسفة العرفان، دار الهادي، بيروت، ط١، ت٢٠٠٤، ص١٠.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

شيء بالنسبة إليه هو وجه الله عزّ وجلّ، وتسبيحه الذي يسبّح بحمد الله سبحانه، فبالنسبة للعارف لا شيء إلا الله تعالى، ولا وجود إلاّ وجود الله عزّ وجلّ، هذا المقام لا يمكن أن يصل إليه أحد (بالنسبة إلى العارف) إلاّ من خلال مجاهدة النفس، فمجاهدة النفس هي التي توصل إلى ذلك الصفاء، وإلى تلك البصيرة التي يمكن من خلالها أن ينظر العارف إلى ذاك الوجود نظرة مختلفة عمّا يراه الفيلسوف وعما يراه أي إنسانٍ آخر»[١].

وعليه، هل يمكننا وصف العلامة الطباطبائي بأنه من أهل العرفان؟ وهل لديه ذوق ومسلك خاص؟ وكيف تجلى ذلك في أخلاقياته؟ وخاصة أن الأخلاق والتحلي بفضائلها هي من أولى مراحل السير والسلوك إلى الله سبحانه وتعالى.

بحسب التتبع، يظهر جليّاً أنّ العلامة الطباطبائي كان من أهل هذا الفن، وليس هذا فحسب، بل كان من العرفاء ذو المقام العالي بنظر تلامذته ومريديه، وكان لديه مسلك خاص تلقاه من أستاذه الأوحد في هذا المجال وهو الميرزا علي القاضي، وهذا المسلك أساسه معرفة النفس وصولاً لمعرفة الله سبحانه، وبهذا الصدد يقول أحد تلامذة الطباطبائي وهو العلامة الطهراني: «كان مسلك أستاذه الأوحد الحاج الميرزا علي القاضي، وهو مسلك أستاذه السيد أحمد الكربلائي الطهراني، والذي كان أستاذه الآخوند الملا[٢] حسين قلي الهمداني (رض)، وهو مسلك معرفة النفس، الذي يتلازم مع معرفة الرب، وهو يحصل بعد عبور عالم المثال والصورة، وبعد عبور عالم النفس إلى

(١) فلسفة العرفان، م.س، ص٢٠.

(٢) يطلق مصطلح الآخوند، الملا، على رجل الدين صاحب المكانة الرفيعة في العلم.

الفناء عن النفس بمراتبها يحصل البقاء بالله، أما تجلّي سلطان المعرفة فإنه يحصل عندما لا يبقى في وجدان السالك أيّ من الآثار النفسانية؛ ومن الشروط المهمة لتحصيل هذا الأمر؛ المراقبة، حيث يجب على السالك أن يحفظ آدابها وشرائطها في كل مرحلة من المراحل، أو منزل من المنازل»[١].

أما لجهة أخلاقه وتعامله مع الآخرين، فيقول الطهراني: «أما الفرق الواضح الذي كان يميّز العلامة الطباطبائي عن الآخرين هو أنّ أخلاقيّاته كانت ناشئة من رشحات الباطن، وبصيرة الضمير، وحلول حقيقة السير والسلوك في باطن القلب والذهن، وكانت معاشراته ومعاملاته وسائر أموره تقوم على ذلك الأصل»[٢].

وينقل الطهراني بعض الأحداث التي تظهر هذا المستوى الرفيع من الأخلاق فيقول: «رغم أن هذا الإنسان كان عالماً كبيراً، إلا أنه كطالب صغير كان يجلس في زاوية ساحة المدرسة على الأرض، ويأتي عند الغروب إلى المدرسة الفيضية للصلاة، فيصلي عندما تقام الجماعة مثل سائر الطلاب مؤتماً بالمرحوم السيد محمد تقي الخونساري.

فقد كان العلامة الطباطبائي متواضعاً ومؤدباً، وشديداً في حفظ الآداب إلى الدرجة التي حملتني على أن أقول له تكراراً: إن هذه الدرجة من الأدب والدقة والرعاية فيكم جعلتنا بلا أدب! فهل فكرتم بحالنا!»[٣].

(١) الشمس الساطعة، م.م، ص٨٠.
(٢) م.ن، ص٨٢.
(٣) م.ن، ص٧٧.

وفي موضعٍ آخر ينقل الطهراني: «قبل عدة سنوات زرته في مشهد المقدسة، وعندما دخلت عليه كان مستلقياً على وسادة، فقد طلب منه الطبيب أن لا يجلس على الأرض الصلبة بسبب ضعف قلبه، وبمجرد أن رآني نهض من مكانه وطلب مني أن أجلس عليها، فلم أقبل وبقينا لفترة واقفين، حتى قال: إجلس، فيجب أن أقول لكم شيئاً، فأطعته متأدباً، وجلس هو على الأرض، ثم قال: ما كنت أريد أن أقوله لكم: إنّ هذا المكان أكثر ليونة»[1].

ويضيف الطهراني: «منذ ذلك الوقت الذي كنا ندرس في قم، لم يحصل أن سمح لنا بالصلاة جماعة وراءه، وقد بقي هذا حسرة في قلوبنا، لأننا لم ندرك جماعته، واستمرّ الأمر كذلك إلى أن جاء شهر شعبان وتشرّف الطباطبائي بزيارة مدينة مشهد وصلَّ بمنزلنا، وجعلنا غرفته في المكتبة لكي يتسنى له قراءة ما يشاء من الكتب؛ وعندما كان وقت المغرب، فرشت له وللممرّض الذي كان يرافقه سجادة للصلاة، وخرجت من الغرفة ليبدأ بالصلاة فالتحق به على هذه الحال، فمرّت ربع ساعة من المغرب، وناداني مرافقه، وقال: ما زال السيد ينتظركم لتبدأوا بالصلاة، قلت: أنا أريد أن أقتدي، قال: بل نحن نقتدي، قلت: أرجوكم أن تبدأوا بصلاتكم، فقال: ونحن نرجوكم أيضاً، قلت له: منذ أربعين سنة وأنا أطلب منكم أن تسمحوا لنا بالصلاة وراءكم، فاقبلوا منّا، فقال مبتسماً: سنة تضاف إلى الأربعين.. ولم أستطع أبداً أن أتقدّمه، واعترتني حالة شديدة من الخجل والحياء. فرأيت أخيراً أنه قد ثبت في مكانه ولم يكن مستعداً للتنازل بتاتاً، وليس من الصحيح أن

(١) م.ن، ص٧٨.

أخالف طلبه، فأذهب وأصلي لوحدي فرادى، قلت له: إنني عبدٌ مطيع لكم، فإذا أمرتم التزمت، قال: أي أمر نحن نرجو منكم؟ فنهض للصلاة، وصلى مأموماً. وبعد أربعين سنة، إضافةٍ إلى أنني لم أقدر على تحقيق الصلاة جماعة خلفه، بل وقعت هذه الليلة في هذا الفخ أيضاً»[١].

من مجموع ما تقدّم، يتبيّن معنا أن العلامة الطباطبائي كان من أهل العرفان المميّزين، وكان في سيره وسلوكه نحو الله سبحانه وتعالى ينتهج منهج معرفة النفس الموصلة إلى معرفة الرب، وهذا المنهج تلقاه عن أستاذه الميرزا علي القاضي.

أمّا لجهة أخلاقه، فهو كان في غاية الأدب والرّفعة في الأخلاق يشهد له بذلك القريب والبعيد، وعلى اعتبار أنّ الأخلاق سمة من سمات العارف أتينا على ذكرها في هذا السياق.

أمّا منهجه في المسائل الأخلاقية، كمسألة (الحسن والقبح) وغيرها، تركنا البحث فيها هنا لأنّنا سنناقشها في الفصل القادم تحت عنوان مستقل، وسيتبيّن معنا أن منهجه كان إصلاحياً أكثر من كونه تجريبياً أو وصفياً.

٤ – في المسائل العلمية والإجتماعية:

إنطلق العلامة الطباطبائي في معالجته للمسائل العلمية وفق المنهج الإسلامي الذي اعتمد فيه على القرآن الكريم، وما ثبت عن

(١) الشمس الساطعة، م.م، ص٧٩.

المعصوم عليه السلام بالمعنى الأعمّ، وعلى العقل؛ ولكونه فقيهاً، ومفسراً، وفيلسوفاً، انعكس ذلك على مجمل مناقشاته للمسائل العلمية التي كان منهجه فيها أقرب ما يكون إلى المنهج الجدلي المعضود بالأدلة العقلية، ويمكننا تلمس ذلك من خلال المحاورات العلمية التي كان يعقدها العلامة الطباطبائي مع تلامذته، حيث كانوا يطرحون عليه الأسئلة العلمية المختلفة وكان يجيبهم وفق المنهج المذكور آنفاً، ومن هذه المحاورات على سبيل المثال:

عندما سأله أحد تلامذته: «هل تعتبر الروح بلسان الشرع هي أوّل ما خلق الله، أي الحجاب الأقرب؟ وما يعبّر عنه بالعقل الأول»؟

أجاب الطباطبائي: ورد في الروايات الشريفة أنّ إطلاق لفظ أوّل ما خلق الله على عدة أمور منها: «أوّل ما خلق الله نور نبيّك يا جابر»[1]، أو أوّل ما خلق العقل، أو الماء، أو اللوح، أو القلم.

وفي سورة الشورى ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾، يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢﴾[2].

والحاصل، أن دراية الإيمان والكتاب قد تمّت بواسطة وحي الله على الرسول، وذلك من خلال إيصال روحه المباركة بذلك الخلق العظيم الذي هو الروح، وبناءً عليه، فإنّ روح النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قد وجدت من هناك وهي أوّل ما خلق الله.

وفي لسان الحكمة، يمكن اعتبار أن المراد من العقل الأول هو

(١) يبدو أن السائل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم هو جابر بن عبد الله الأنصاري أحد أفاضل الصحابة.
(٢) سورة الشورى، الآيات: ١، ٢ و٥٢.

الروح، لكن بشرط أن تنتزع خواصها، أي يبقى على نفس ذلك التجرد والإطلاق، وإلا لما كان عقلاً أوّلاً، وكل ما يتنزّل يفقد المزيد من السعة والإطلاق[١].

وفي محاورة أخرى، يسأل التلميذ: «هل حقّق إبن سينا في مسألة طي الأرض، باعتباره من الحكماء الذين بحثوا كثيراً في العلل المادية، وله تحقيقات جيّدة؟»[٢].

يجيب العلامة الطباطبائي: لم أجد بحثاً حقّق فيه إبن سينا في موضوع طيّ الأرض، ولكنه يؤمن بخرق العادة ويصدّق بمعجزات الأنبياء.

يقول الله سبحانه وتعالى في مسألة عرش بلقيس: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾[٣].

إن المراد من ارتداد الطرف ليس إغماض العين، بل أسرع من ذلك بألف مرة؛ فالطرف ليس جفن العين، ولو كان ذلك لوجب أن يقول: فلما لم يرتد إليه طرفه رآه مستقراً عنده؛ بل الطرف هو النظر باللحاظ، والمراد من ارتداد الطرف هذا أنه قبل ارتداد النظر، أي شعاع البصر الخارج من العين ووقوعه على الأشياء وحسب قانون الإنعكاس يرتدّ النور، ومنه تنعكس على العين ويتحقق الإبصار.

أي أنك قبل أن ترى الشيء الذي تنظر إليه سوف ترى عرش

(١) الشمس الساطعة، م.م، ص٣٢٢.
(٢) الشمس الساطعة، م.م، ص٣٢٥.
(٣) سورة النمل، الآية: ٤٠.